

الفصل الثاني والعشرون

عملية انتقام

في الثاني من شباط فبراير عام ١٥٦٥ قام القيصر بدخول عاصمته التي كان قد تركها قبل شهرين بينما كانت آلاف الجماهير تبكي من الفرح وهي راكعة على ركبتيهما تتطلع إلى العائد إليها . ومع ذلك فإن المرء إذا ألقى نظرة عجيلى على هذه السحنة الإلهية رأى فيها مظاهر سريية من عدم الانسجام . فالقيصر الفتى المهيب الذي لم يكن له من العمر إلا أربعة وثلاثون عاماً كان شاحباً منحني الظهر وله شعر مبشر . وربما أنه كان قد اقتلع شعر لحيته فقد بدا كمجنون ، ومابقي من تلك اللحية كان مشعثاً . وبدأ رأسه أصلع ونظرته ثابتة كما لو كانت عينه حواء . وتحت جبهته المتفضضة كان يختبئ كمنماً تصميم حار على انتقام ، ولم يكن حسن الشكل ولا معتنياً بمظهره ، يرتجف ويضطرب فمه كما لو كان يعاني من ألم أو من رغبة في الانتقام . هكذا قام بدخوله القريب إلى المدينة تحت قرع جميع النواقيس بينما كانت زحافاتہ تتقدم ببطء فوق الثلج المتجمد .

وعندما وصل إلى الكرملين أصدر أوامره في عدة أمور . فأولاً هو لن يقطن الكرملين وأن عليهم أن يبنوا له بأقصى سرعة ممكنة بيتاً حصيناً في وسط المدينة بين مساكن الشعب بين أرباض ونيكيتسكايا . ثم علد من جديد أخطاء البويار وحصل من الكنيسة على تأكيد بالأا تقوم بأية انتقادات على ماسيقوم به من تدابير ضد أولئك الذين تسببوا في سخطه وغضبه . وعبر عن مقاصده بانتقاء ألف شخص من بين النبلاء ليكونوا حرساً